ملامح من الفكاهة في الحكايّة الشعبيّة

طه الهباهبه *

مما لاشكّ فيه أنّ الحياة ستكون أكثر قسوة لو خلت من الدعابة والطرفة والترفيه، ومن هنا نجد أنّ النوادر والطرائف والمقالب والملاعب موجودة في الأدبين الرسمي والشعبي، ولعلّها تعدّ من المراحل الأولى للإبداع القصصي بما يجتمع فيها من الكلم الذكي المعتمد على سرعة الخاطر أو الحدث الجارح أو العبارة اللاذعة، وقد يكون الغرض منها تزجية الفراغ بالثرثرة أو التندر أو النقد الفاضح، وقد تهدف إلى التهذيب والتثقيف أو التسليّة والترفيه.

الفنون الشعبية .. ويمكن القول إنّ أسباب ظهور هذا النمط من الحكايات لايختلف تمامًا عن أسباب ظهور الأنماط الأخرى، لأنّ وظيفتها التخفيف من وقع الحياة على الناس، وبخاصة أنّ موضوعاتها تُتّخذ من الحياة اليوميّة العاديّة وتندر فيها الخوارق والعناصر المساعدة من الجن والعفاريت والغيلان، وهي بالتالي لسان حال المواطن البسيط والتسليط على همومه ولو بطريق السخرية والنادرة، وهي أكثر الأساليب تاثيرًا ورواجًا لدى الناس، وهذه لفتة ذكيّة من الرواة عندما جعلوا النقد الاجتماعي والسياسي يختفي تحت غطاء الإضحاك الذي تظهر به الحكاية المرحة.إنّ الناظر في الحكاية الشعبيّة المرحة تحديدًا يرى ببساطة واضحة أنّ أبطال هذه الحكايّة هم من بسطاء الناس ومن الواقع اليومي المعيش، فهم: إمّا فلاح مزارع أو زوجة فلاح بسيط أو زعيم قبيلة أو فارسها، معروف الاسم أو الكنيه والصفات. وكأنّهم أرادوا بهذه الحكايات أن يمجّدوا هذا النمط الحياتي الذي يعيشونه، وأنّ هؤلاء الرواة أرادوا إثبات القدرة على خلق نماذج بشريّة فاعلة ومتفاعلة مع البيئة والظروف مع أنّها نماذج كما قلنا بسيطة وغير معقّدة، ومن أهمّ أسباب ظهور هذا النمط:

1. أوقات الفراغ الكثيرة في حياة البدوي أو الريفي وبخاصّة بعد انتهاء العمل الموسمي، ووجود فراغ طويل في ليل أطول.
2. أنّ العمل الجماعي لابدّ أن تظهر فيه بعض المفارقات اللطيفة التي تصبح مادّة للضحك والتندر،

*باحث أردني ووزير سابق

كما تصبح مادّة يتناقلها الرواة من بيئة لبيئة، ومن شخص لشخص.

3. في ظل هذه الحقائق وفي ظلّ غياب وسائل الترفيه الاجتماعيّة والثقافيّة فإنّ كلّ حركة تكون مادّة للمرح، وهذه الحالة تساعد على ظهور بعض الرواة المتخصّصين في الكوميديا الذين يثيرون المرح في مجالسهم وحركاتهم وإشاراتهم.

في ظلّ هذه البيئات البسيطة أصبح بعض الرواة أهمّ وسيلة من وسائل الترفيه والنقد اللاذع وأصبحوا يسقطون همومهم بشكل ذكي وبأسلوب فكاهي قريب إلى القلب، حتى أصبحوا نجومًا في هذا الميدان، لدرجة أنّ أناسًا كانوا ينسبون بعض ما يقومون به أولئك الأشخاص من أجل ضمان استماع الناس لهم.فهذا (جحا) الشخصيّة التي اختلف الناس بها وهل هي موجودة فعلا أم أنّها من اختراع الرواة؟ فقد كان الناس ينسبون إليه الطرائف كي تلقى آذانا صاغية وقد تكون من تأليف بعضهم ولا علاقة له بها، وكذلك الأمر ينطبق على الشاعر العباسي الماجن الحسن بن هاني بأبي نواس، فكم من الأشعار الغزليّة والماجنة قد نسبت إليه، وكم من النوادر قيلت على لسانه حتى أصبح مضربًا للمثل في هذا الباب؟ وكذلك الامر مع هبنقة معتوه العرب واشعب، ذلك الطفيلي الذي زخرت الكتب بنوادره ووقوفه أمام المآدب والمطاعم والأعراس والحفلات باحثًا عن الأكل وإشباع نهمه الذي لايوصف.

ومما يذكر في هذا المجال ويؤيده بقوة الكتاب الذي وضعه الجاحظ وزخر بنوادر البخلاء والمقترين والمانعين للمعروف، والتركيز على الصورة المقارنة بين بعض البخلاء وبين بعض الكرماء والأجاويد من أمثال حاتم الطائي وهرم بن سنان ومالك بن عوف اللذين خلدهما زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة. وبهذا تكون حكايات الطرافة أو المرح قد سرت في المجتمعات المعاصرة لها سريان النار في الهشيم.

ويجمع دارسو الأدب الشعبي على أنّ حكايات المرح، والتندر، والمقالب وبالذات في زمن الشطار والعيارين الذي عرفتهم الحياة العربيّة في عصر من عصورها، والتي تفيض بها حكايات ألف ليلة وليلة، من أمثال علي الزئبق) والمقدم (أحمد الدنف)قائد الميمنة في بغداد، والمقدم (حسن شومان) قائد الميسرة، وقد سيطرت هذه الفئة على الحياة الاجتماعيّة والأمنيّة في بغداد أيام هرون الرشيد، ولعلّ بعض المجالس التي

كانت تحيط به كانت تروي مغامرات هذه الفئة وتروج لها، وتمدحها لدرجة أنّ بعضهم قد نال حضوة عند عليّة القوم ونالوا الأوسمة وأغدقت عليهم الأموال، لدرجة أنّ علي الزئبق جاء من مصر ليعرض مهاراته ومقالبة في حاضرة الخلافة في بغداد. (سيرة علي الزيبق، د.السيد خلف، ص.20)

..ولعلّ حكايات (دليلة) ومقالبها قد استهوت الرواة وخلقت جوًا من الإعجاب بها وتتبع أخبارها والترويج لها، وقد كان لها ابنة اسمها (زينب المحتالة) وهي أدهى من والدتها كما كانت ذراعها الأيمن في كلّ حركة من حركاتها، وقد أصبحت دليلة أوّل من اشتهرت بعمل (المناصف) والحيل والخدع لدرجة أنّها كانت تحتال على الثعبان حتى تطلعه من جحره، ويقال إنّ إبليس كان يتعلّم منها المكر والدهاء بأسلوب كوميدي رهيب. (الليالي، 4/ 81)

ومن الطريف أنّ (دليلة) قد أصبحت هدفًا للشطّار والعيّارين الآخرين الذين انقطع ذكرهم بسببها، فأخذوا يدبرون لها المكائد والمناصف، كما تدخلوا لدى رجال الخليفة لكي يدعو إلى بغداد شاطر مشهور في مصر اسمه (علي الزئبق) لكي يتغلب عليها ويكسر شوكتها، وفعلا يقوم بكثير من فنون المقالب التي اربكت دليلة وجعلها تتوقف زمنا كي تعيد حسابتها وتجدد وسائلها وأدواتها، فوضعت في طريقه ابنتها (زينب) التي تفوقها في الحيل فأحبها الزئبق، وتمنّعت عليه حتى وافق على شروط والدتها (دليلة) وبذلك وقع الزئبق وسلم أمره لهن، واعترف بعجزه أمامهن.

ويبدو أنّ الحب بين الزئبق وزينب قد أصبح حقيقة لم تستطع دليلة أن تقاومه فوافقت على أن يتمّ

زواجهما، وتقول الروايّة إنّ دليلة قامت بتقبيل الزئبق بين عينيه واعترفت به صهرًا لها وقالت له: الآن قد أخلصت لك لأنك صرت صهري مثل ولدي ولكنّها لم تكن صادقة ولا مخلصة لأنّها ذهبت إلى الموصل وأخبرت الأمير (رستم) بما وقع لها من الزيبق، وقالت له: إنّني أزوجك زينب ستّ الملاح وأملّكك بغداد ومتى ملكتها تطيعك جميع دركات البلاد، واتفقا على قتل الزيبق بعد عودته من المهمّة التي كلفته بها دليلة وهي إحضار (القفطان) مهرًا لزينب من عزرو اليهودي.

وتذكر الروايات أنّ مقالب دليلة وحيلها قد بلغت مسامع الخليفة هرون الرشيد الذي استقبلها وعرف منها أسباب اتخاذ هذة الوسائل نمطًا لحياتها، ثم خلع عليها وأعاد لها رواتب زوجها، وهذا يدلّ بوضوح على أنّ هذه الفئة الذكيّة المحتالة كان يحسب لها ألف حساب في أمن الدولة واستقرارها، وهذا اعتراف ضمني بدورها وتأثيرها على الشارع، سلبًا أو إيجابا وبين طبقات المجتمع الفقيرة تحديدًا، كما نلاحظ أنّ أبطال هذه الحكايات المرحة والطريفة هم من أبناء العامّة الذين نشأوا بين أحضان الحارات والأزقّة، وأنّ البطولة هنا هي بطولات فرديّة قاست الظلم والبؤس والحرمان والفقر؛ فأرادوا أن يحاربوا الطغاة بسلاحهم، وأن يهجموا عليهم في عقر دارهم. وبذلك تحوّلت هذه الأنماط على يد القاص الشعبي إلى رموز أدبيّة دالّة على التمرّد السياسي والاجتماعي، وأنّ الشعب/ الجمهور/ كان يرى ذاته في هؤلاء الأبطال، يفرح لفرحهم ويهشّ لانتصاراتهم ويستمتع بملاعيبهم ومناصفهم ونوادرهم ويحزن لهزيمتهم أو فشلهم، وما لقاء الخليفة بدليلة المحتالة وتكريمه لها وإعجابه بصراحتها وبمقالبها إلّا دليل على تعاطف القاصّ الشعبيّ مع هذه النماذج الإنسانيّة التي جعلها تضحك على ذقون الناس والسلطة.

ويمكن القول إنّ أبطال هذه الحكايات لاهدف لهم إلا إظهار ما لديهم من حذاقة وبراعة وخفة وحركة والقدرة على هزيمة الغرماء والمناظرين بالحيل العجيبة والذكاء الوقّاد وسرعة الخاطر وجسارة القلب وخصوبة الخيال وبراعة التنكر وتقليد اللهجات وتمثيل ذوي العاهات والأنماط البشريّة المنوعة، ولهذا اعتمدوا على عنصر المغامرة التي تقوم على هذه الصفات أو ما أطلق عليه مصطلح (المناصف) أو (ملاعيب) وهو عنصر في حد ذاته مقبول فنيًا بل لعلّه أهمّ عنصر يضفي على الحكاية المزيد من الحيويّة ويعطيها شكلها الفني المستقل والأصيل وهو نوع من المغامرات وثيق الصلة بالسلطة السياسيّة والمجتمع. (حكايات الشطار والعيارين، د.محمد رجب النجار، ص، 276)

وفي واقع الأمر أنّ العنف والطرافة والإمتاع لايلتقيان، وهذا ما نلسمه في كلّ المغامرات والمقالب، حيث خلت من القتل إلّا في حالات نادرة لأنّ الهدف من هذه الحكايات هو إمتاع الجمهور وإدخال البهجة إلى وجدانه، وتحقيق بعض أحلامه البسيطة في العدالة والمساواة ودحر الطغاة والظالمين، وتعرية كثير من الأنماط البشريّة السلبيّة، وتوضح أوجه الفساد في الأنظمة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة للدولة سواء أكانت تلك الأنماط من أعلى درجات السلم الوظيفي أم من أدناه، وهذه الأعمال حظيت بشعبيّة ضخمة جعلتها غذاء الناس الفنّي في المقاهي والأسواق والأنديّة، ودخلت إلى ضمائر المتلقّين من أبناء الشعب العربي في كلّ مكان فعاشت جيلا بعد جيل، ونسي الناس واضعها ومؤلّفها، كما أصبحت في عرف الدارسين اليوم ميدان دراسة الأدب الشعبي.